في الأدب الغربي

حزن أوليبو

لفيكتور هوجو

ترجمة ابن عبد الملك

لم تكن الحقول غبراء ، ولا السماء كدراء حين أقبل يقضي ذمام هذه الربوع التي سال في ثراها قلبه الجريح الدامي وانما كان ضوء النهار يتألق في أفق لازوردي غير محدود ، ويتدفق على بساط من أديم الارض ممدود . وكانت النسائم عابقة بالعطور ، والروح حافلة بالخضرة والزهور .

***

وكان الخريف طلق الجوانب ، والسماء مذهبة الحواشي ، والربى حانية المحامل المونقة على السهل وقد ضربت في خضرتها صفرة قليلة .

والطيور هاتفة بأغاريدها الشجية القدسية ووجوهها الى الله الذي يم عليه كل كائن ، ويسبح بحمده كل شيء ، كأنما كانت تقول له شيئا عن الانسان !!

***

أراد الوليان أن يرى كل شيء : يرى الغدير الطامي الذي يصطفق بجانب العين ، والطلل البالي الذي استقند ما في كيانها بالصدقة ، وسرحة الوديان المنيفة المموجة وخلوات الحب في أجواف الغاب المترامية ، والشجرة التي استغرقا تحتها في القبلات فذهلا عن كل شيء .

***

بحث عن الحديقة والبيت المنعزل والبستان الحادر ، والدرازون الذي يغيب البصر من خلاله في ممشى منحرف . وكان يمشي متكسر الوجه من الحزن ، شاحب اللون كثير الهم فيرى وأسماء لدى كل شجرة شبح الايام الخوالي يقوم منتصبا على وقع خطاه المتئدة الثقيلة !

***

تجول طوله النهار على طول المسيل وقد ملك اعجابه وجه السماء الضاحك ، ومرآة البحيرة المصقولة .

ثم قيد بصره ماراعه من صور الطبيعة في الحقول ، فتأملها مليا ثم ذهب مع أحلامه حتى المساء .

تجول طيلة النهار ذاكرا والهفي عليه خاطره الذبيذة ناظرا من اعالي السوج دون أن يجرؤ على الولوج كأنه مطلوك من صعاليك الهند .

فلما آدنت الشمس بالمغيب احس في صدره وحشة القبر وفي قلبه لوعة الهم ، فجأر بالشكوى وهتف بالنجوى يقول :

***

أيها الالم ! لقد اردت انا المشترك الخاطر السمور الفؤاد ان أعلم هل الاناء لا يزال محتفظا بالسائل ؟ وان أري ماذا فعل هذا الوادي السعيد بما خلفت فيه من قلبي ؟ .

ما اقدر الزمن اليسير على ان يغير كل شيء !

ايه ايتها الطبيعة ذات الوجه الضاحك والجبين الاغر ! ما اسرع ماتنسين ! وما أشد ما تقطعين العلائق الخفية التي تربط قلوبنا بكثرة استحالاتك وتغير حالاتك ! .

***

ان غرفنا التي اتخذناها من ورق الشجر الألف قد تهدمت .

والشجرة التي حفرنا عليها اسمينا قد ماتت أو تحطمت

ووروداتنا النابتة في الحظيرة قد عبثت بها ايدي الاطفال الذين يقفزون فوق الحفرة!

والعين التي كانت تشرب منها ساعة القيظ وهي هابطة من الغاب قد قام على موردها جدار ! !

لله ما كان أجمل يدها حين كانت تغترف بها الماء ثم تدعه يتساقط من خلال أصابعها كثير اللؤلؤ الرطب ! !

***

لقد رصفوا الطريق الغليظ الوعر الذي كنا نسير فيه جنبا الى جنب فترتسم على رمله التي قدمانا ، ويكون أثر قدمك الرفيقة الانيقة بجانب قدمي سخرية حمقاء ، وضحكة استهزاء ! !

***

والحاجز الحجري الذي قام على حد الطريق حقبة طويلة ذلك الحاجز الذي كان يحلو لها أن تجلس فوقه في انتظاري قد هد ركنه اصطدام المجلات الموقرة بالاعباء ، وهي آيبة تئن في الماء ! !

***

والغابة أصبحت حطاما هنا وبقيت أدواحها هناك ! ولم يكد يبقى من كل ما حللناه وتقمصناه شيء حي !

واكمام الذكريات تبددها الرياح الأربع كحكومة من التراب الجامد البارد قد ألوت بها الريح الدبور ! !

واويلتاه ! ألم يعد لنا اذن وجود ؟ هل مضت مدتنا وانقضت تنا ؟ أما يرجعها الى صرخاتنا الضارعة الضائعة شيء ؟
النسيم يداعب الغصون وأنا أبكي ! ومنزلي ينظر اليّ ولا يعرفني!

* * *

والآن سيمر غيرنا من حيث مررنا ، وسيرد آخرون هذا ورد الذي عنه صدرنا ، والحلم الذي بدأناه سيواصلون رؤياه ، ولكنهم لنا لا يستطيعون أن يبلغوا مداه !

* * *

وذلك لأن الناس في هذه الحياة لا يتممون ولا يكملون ، سواء في ذلك لجبيشون والطيبون

وسيستيقظون جميعا في مكان واحد من الحلم ، اذ كلهم يبدأون ، هذا العالم ثم يتممون في غيره

* * *

أجل ستأتي نوبة آخرين ، فينعمون في ظلال هذا الكن الساكن من الفاتن بما وهبت الطبيعة للحب من خيال وجلال ولذة !

* * *

وسيرث غيرنا حقولنا وطرقاتنا وخلواتنا ، ويستولي من لا تعرفين ن غابتك يا حبيبتي ! ويقبل بعض النسوة الهوج الى هذا الماء يتردن ه فيكدرن غمره الذي لمسته قدماك العاريتان فتقدس !

* * *

يالله ! اذن ذهب الحب الذي أحببناه في هذا المكان باطلا ! ولم ق لنا شيء من هذه الربوات المزهرة التي امتزج فيها لهبانا فانصهر ما جسمانا واتحد قلبانا

هيهات قد استرجعته الطبيعة التي لا ترحم ولا تألم !

* * *

بالله ابقي ايتها السنابل المرعة ، والجداول المترعة ، والعرائش زقرة بالعناقيد ، والاغصان المثقلة بالاعشاش والاغاريد ! وخبرني يها الفنائر والآكام والادغال ! هل تطربن قلباً غير قلبنا بهذه الاغاني ، ناغين حباً غير حبنا بهذه الاناشيد ؟

* * *

لقد كنا ندرك مرامي كلامك ، ونجمل مشاعرنا كلها اصداء جع انغامك ، ونرهف اسماعنا لالتقاط ما يدر احياناً من بليغ مرك . دون أن نميط الحجاب عن خبيئة سرك !

* * *

ايتها الطبيعة المجلوة في هذا الخلاء الجميل !

متى رقدت انا وهي تحت صفائح القبر فهل تظلين جامدة أمام تنا وموت حبنا ، تواليّ حفلاتك واعيادك ، وتواصلين بهاتك نشادك ؟

الا تقولين لطيفنا اذا ما رأيتما يجولان بين رباك وخلواتك ، وفيا الفا من جبالك وغاباتك ، ما يقوله جميع الاصدقاء لاخوانهم الفقداء من سرائر القلب ومجاوى الضمير ؟

* * *

هل تستطيعين أن ترى دون أن يلوعك الحزن ويرمضك الاسى شبحينا يطوفان بمواقع خطواتنا ، ومواضع خلواتنا ، وان تريها تقودني في عناق مكذب الى ينبوع منتحب يئن في خفوت وهمس ؟

* * *

واذا ما لجأ عاشقان الى جوارك ، واختفيا عن العواذل تحت ستارك ، وخبأ سرورهما بين ازهارك ، فهل تسرين اليهما هذه الكلمة :

« أيها الراتعان في رياض الحياة ! اذكرا من طوح بهما الدهر في قفار الموت ! »

* * *

لعمرك ما هذه الروج والعيون والغابات والسموات والبحيرات والسهول والحزون الا عارة مستردة ! يعيرنا الله اياها لحظة من الزمن نضع فيها تلوينا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها .

* * *

ثم يعافي بعد ذلك سراجنا ، ويدفن في حلك الليل شعاعنا . ثم يوحى الى الوادي الذي انطبعت فيه صورنا ونفوسنا أن يطمس آثارنا ، ويمحو أصداءنا وأخبارنا .

* * *

لا بأس ! ! أنسيا أيتها الدار ! واكرنا أيتها الحديقة ! ولا تذكرينا يا ظلال ! واخلعي عتبتنا يا عشب ! وغط آثار قدمينا يا وسيج ! وغردي أيتها الطيور ! وتدفق أيتها الجداول . وتكاثري أيتها الأوراق . فان الذين طويتم صحيفة ذكرهما لا ينسيان !

وكيف تنسين وأنتم خيال الحب نفسه ! أنتم الراحة التي يلاقيها المسافر في وقدة الصحراء ، والحلوة العظمى التي بكينا بها أحر بكاء ، وكل منا يده في يد الآخر !

* * *

كل الاهواء تمضي مع العمر . بعضها يحمل نقابه وبعضها يحمل مديته كدير النحل [1] يسافر جذلان شاديا وجماعته تضمحل وتقل وراءه الاكمة .

* * *

الا اياك أيها الحب فلا شيء يمحوك ! انت السحر وانت الفتنة ! وسواء أكنت مشمالا بدويا أم مصباحا حضريا فأنت الذي تشرق في العيون وبين الضلوع ، وتستولي علينا بالبسمات وخاصة بالدموع ! ان الناس في الشباب يلعنونك ، ولكنهم في الشيب يعبدونك !

(١) دير النحل الهوائم